أنفاسُ القلب

رمضان مصطفى سليمان

حين مات الأب... وُلد التيه

لم يكن الموت يدخل الغرفة دفعةً واحدة، بل كان يتسلّل إليها كما يتسلّل برد الشتاء من نافذةٍ مواربة في بيتٍ قديم .ببطءٍ خفيّ، كأنّه لصٌّ يعرف الطريق إلى الأرواح المتعبة.

وكان الأب ممدّدًا على سريره الخشبي العتيق ، يُصغي إلى ذلك الزحف الصامت بعينين غائرتين فقدتا دهشتهما منذ زمن. وجهه بدا شاحبًا كقمرٍ أنهكه السهر، وأنفاسه تتكسّر في صدره كأمواجٍ بعيدة ترتطم بصخورٍ معتمة لا يراها أحد.

في الغرفة مصباحٌ زيتيّ صغير، وستائر ثقيلة تفوح منها رائحة الرطوبة والعمر الطويل، وعلى الجدار ساعةٌ متعبة تدقّ ببطءٍ كأنها تعدّ ما تبقّى للرجل من دقائق.

وعند حافة السرير وقف الفتى :فرانز ليست.

لم يكن يومها سوى شابٍ نحيل، بعينين واسعتين تتوهجان بقلقٍ مبهم، كأن العالم كلّه اختبأ داخلهما دفعةً واحدة.

كان يشعر بأن شيئًا هائلًا يحدث، شيء أكبر من الموت نفسه؛ كأن الحياة تستعدّ لخلع جلدها أمامه.

رفع الأب يده المرتجفة بصعوبة، فاقترب فرانز سريعًا وأمسكها. كانت باردة وخفيفة على نحوٍ مخيف، كأنها لم تعد يد إنسان، بل ذكرى يد.

حاول الأب أن يتكلّم. تحرّكت شفتاه أكثر من مرة قبل أن يخرج الصوت أخيرًا، مبحوحًا ومتكسّرًا:

تمسّك بالموسيقى يا فرانز... فهي الشيء الوحيد الذي لا يخون.

سكت قليلًا، وأغمض عينيه كأن العبارة التالية أثقل من قلبه الواهن.

ثم قال:

واحذر النساء... فالمرأة نارٌ لا تنطفئ.

ارتجفت عينا فرانز.

لم يفهم تمامًا ما الذي قصده أبوه.

هل كان يحذّره من الحب ؟ أم من الوحدة التي تأتي بعده ؟ أم من تلك الهوّة التي يتركها الإنسان في روح الآخر حين يرحل ؟

حدّق طويلًا في وجه أبيه.

كان يشعر أن الغرفة تضيق شيئًا فشيئًا، وأن الهواء صار كثيفًا كالماء، وأن العالم كلّه يتراجع إلى الخلف بينما هذا السرير وحده يقترب منه.

أراد أن يبكي . لكن شيئًا داخله ظلّ متجمّدًا، كأن الحزن حين يكون عظيمًا أكثر من اللازم يتحوّل إلى صمت.

وفجأة... ارتخت يد الأب. وانطفأ بصره كقنديلٍ فرغ زيته.

في تلك اللحظة، لم يمت الأب وحده.

بل مات آخر جدارٍ كان يحمي فرانز من نفسه.

+

خرج الناس من الغرفة واحدًا تلو الآخر.

الطبيب العجوز جمع أدواته بصمت، والمرأة التي كانت تساعدهم في المنزل أجهشت بالبكاء وهي تتمتم بصلواتٍ متقطعة، أما فرانز فبقي واقفًا قرب السرير كأن قدميه غرستا في الأرض.

كان ينظر إلى الجسد المسجّى أمامه ويحاول أن يفهم: كيف يمكن للإنسان أن يكون هنا... ثم لا يكون ؟

منذ ساعات فقط كان أبوه يتنفس ، يتألم ، ينظر إليه.والآن صار أشبه بقطعة أثاث قديمة فقدت وظيفتها.

اقترب ببطء، وجلس قربه . تأمّل التجاعيد الدقيقة حول عينيه ، واليدين اللتين أكل العمل قسوتهما، والشعر الذي غزاه الشيب قبل أوانه.

وفجأة شعر بطعنةٍ خفية داخله.

لقد أدرك، للمرة الأولى، أن أباه لم يكن قويًا كما تخيّله دائمًا. كان مجرد رجلٍ خائف . رجلٍ أفنى عمره كله وهو يركض خلف حلم ابنه ، ثم اكتشف قبل موته بقليل أنه لن يعيش ليرى النهاية.

خفض فرانز رأسه وهمس بصوتٍ مرتعش :

وأنا... ماذا سأفعل وحدي الآن ؟

لكن الجسد لم يُجب.

وكان ذلك أول درسٍ قاسٍ يتعلّمه عن الموت :

أن الذين يرحلون يأخذون معهم الإجابات كلها.

+

بعد الجنازة، بدا البيت فارغًا على نحوٍ وحشي.

الأثاث نفسه، الجدران نفسها، رائحة الخشب والرطوبة نفسها... لكن كل شيء فقد معناه.

حتى الصمت صار مختلفًا.

في الليل، جلس فرانز قرب النافذة .

المدينة غارقة في ضبابٍ رمادي، والمطر ينقر الزجاج بخفّةٍ حزينة. وعلى الطاولة القديمة أمامه استقرت نوتات موسيقية مبعثرة، بعضها ناقص، وبعضها ملطخ بحبرٍ ذائب.

أشعل شمعة، ثم مرّر أصابعه على مفاتيح البيانو.

خرج صوتٌ خافت، مرتبك، كطفلٍ يبحث عن أمه في الظلام.

أغمض عينيه.

وفجأة عاد صوت أبيه :

تمسّك بالموسيقى... فهي الشيء الوحيد الذي لا يخون.

لكن شيئًا آخر كان يتحرك داخله.

شيء يشبه الغضب.

غضبٌ من الموت، من الفقر، من المدن الباردة التي تبتلع الناس ثم تنساهم، من الله ربما... ومن نفسه أكثر من أي شيء.

لماذا لم يبكِ ؟ لماذا يشعر بالخواء بدل الحزن ؟ هل صار قاسيًا إلى هذا الحد ؟

راح يعزف بعنفٍ أكبر.

تسارعت النغمات، وارتجف البيانو تحت أصابعه كحيوانٍ جريح. كان يعزف كأنه يفرغ قلبه كله داخل المفاتيح السوداء والبيضاء.

ثم توقّف فجأة.

تنفّس بصعوبة ، وحدّق في انعكاسه على زجاج النافذة .

بدا له وجهه غريبًا. كأن شخصًا آخر يسكنه.

همس في داخله :

"ربما لم أكن أحب أبي كما ينبغي".

لكن صوتًا آخر ردّ عليه فورًا :

"بل كنت تخاف خسارته فقط".

ارتبك.

هل الحب خوف ؟ أم أن البشر لا يدركون قيمة من يحبون إلا حين يغيبون ؟

ظلّ ساهرًا حتى الفجر ، غارقًا في أسئلةٍ لا تنتهي.

وكان يشعر، للمرة الأولى، أن داخله قارةٌ مظلمة لم يكتشفها بعد.

+

مرت الأيام بطيئة وثقيلة.

صار فرانز يعزف في المسارح الصغيرة مقابل مبالغ زهيدة، ويعود ليلًا إلى غرفته الباردة محمّلًا بتعبٍ لا يشبه تعب الجسد، بل تعب الروح التي تحاول أن تجد مكانها في العالم.

وفي إحدى الأمسيات، بعد حفلٍ متواضع، اقتربت منه امرأة. كانت ترتدي معطفًا أسود طويلًا، وفي عينيها ذلك البريق الذي يشبه الأسرار.

قالت وهي تبتسم :

حين تعزف... أشعر أنك لا تعزف الموسيقى، بل تعزف نفسك.

تجمّد قليلًا.

ثم تذكّر فورًا كلمات أبيه :

"احذر النساء... فالمرأة نارٌ لا تنطفئ".

ابتسم بسخرية خفيفة وقال :

والموسيقى ؟ أليست نارًا أيضًا ؟

ضحكت المرأة. وكان في ضحكتها شيء أربكه أكثر مما ينبغي.

جلسا طويلًا يتحدثان . عن الفن، والوحدة، والخوف، وعن المدن التي تجعل البشر غرباء حتى عن أنفسهم.

وحين عادت إلى بيتها تلك الليلة ، بقي فرانز يمشي وحده تحت المطر.

لكنه لم يكن وحده حقًا. كانت كلماتها تمشي معه. وصوتها. ونظرتها.

أدرك فجأة أن الإنسان قد يقضي عمره كله هاربًا من شيء... ثم يقع فيه عند أول التفاتة قلب.

+

في الأشهر التالية، بدأ اسمه يلمع شيئًا فشيئًا.

صار الناس يتحدثون عن ذلك الشاب الذي يجعل البيانو يبكي.

لكن الشهرة لم تمنحه الطمأنينة. بل زادت هشاشته.

كان كل تصفيق يسمعه يترك داخله فراغًا أكبر، كأن المجد لا يملأ الروح بل يكشف اتساع خرابها.

وفي ليالٍ كثيرة، بعد انتهاء الحفلات، كان يعود إلى غرفته ويجلس وحيدًا في الظلام دون أن يشعل شمعة واحدة.

يسأل نفسه :

"ماذا يريد الناس مني حقًا ؟"

هل يحبونه ؟ أم يحبون الصورة التي صنعوها عنه ؟ وهل الفن خلاص... أم لعنة أنيقة ؟

كان يشعر أحيانًا أن الموسيقى ليست موهبته، بل جرحه الكبير.

كل مقطوعة يعزفها كانت محاولةً يائسة لترميم شيءٍ مكسور داخله، شيء بدأ يتشقق يوم مات أبوه ولم يتوقف منذ ذلك الحين.

+

وذات ليلة، بينما كان يعزف أمام جمهورٍ ضخم، لمح بين الوجوه رجلًا عجوزًا يشبه أباه على نحوٍ موجع.

ارتبكت أصابعه للحظة.

ثم اجتاحه شعورٌ غريب، كأن الزمن انفتح فجأة وعاد به إلى تلك الغرفة القديمة، إلى المصباح الزيتي، إلى اليد الباردة، إلى الصوت المتقطع :

تمسّك بالموسيقى يا فرانز...

اختنق. و شعر بأن قلبه كله يصعد إلى حلقه.

لكنه أكمل العزف. بعنفٍ هذه المرة. بعزفٍ يشبه الاعتراف الأخير.

وكان الجمهور مأخوذًا بما يسمعه، بينما هو وحده يعرف أنه لا يعزف لهم، بل لذلك الرجل الميت منذ سنوات.

لأبيه. للجدار الأخير الذي سقط.

+

وعندما انتهى الحفل، وقف الجميع يصفقون طويلًا.

أما فرانز، فانحنى ببطء، ثم رفع رأسه نحو السقف العالي المضاء بالثريات.

وللمرة الأولى منذ موت أبيه... بكى.

ليس لأن الحزن عاد. بل لأنه فهم أخيرًا أن الإنسان لا يشفى من خساراته الكبرى، وإنما يتعلّم كيف يحملها بأناقة أقلّ ألمًا.

خرج بعدها إلى الشارع.

كان الليل باردًا، والمدينة غارقة في ضوءٍ باهت يشبه الحلم.

رفع وجهه نحو السماء، وتنفس طويلًا.

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة، متعبة، كأنها مصالحة متأخرة مع الحياة.

ومشى. بينما كانت الموسيقى، في مكانٍ ما داخل روحه، لا تزال تعزف.

حين تعلّم البيانو أن يبكي

خرج إلى الليل الأوروبي البارد كمن يخرج من حريقٍ لم ينجُ منه تمامًا.

كان المطر ينزل بخفةٍ تشبه الرماد، والمدينة القديمة تغفو تحت ضبابٍ شاحب، كأنها امرأةٌ أنهكها السهر والبكاء. المصابيح الصفراء ترتجف فوق الأرصفة المبلّلة، والعربات تمرّ مسرعةً كأفكارٍ لا تريد أن تتذكّر أحدًا.

شدّ معطفه حول جسده، ومشى. لا يدري إلى أين.

منذ ساعات فقط كانت تجلس أمامه في المقهى ذاته، تضع يديها حول فنجان القهوة الساخن، وتنظر إليه بذلك الحزن النبيل الذي يسبق الوداع النهائي. لم تبكِ. كانت أكثر قسوة من البكاء. كانت هادئة.

قالت له بصوتٍ خافت :

لم أعد أعرفك يا فرانز.

رفع عينيه إليها يومها، وشعر كأن أحدهم أطفأ آخر نافذةٍ مضيئة داخله.

بل تعرفينني أكثر من الجميع.

ابتسمت بأسى.

لهذا أرحل.

ثم قامت ببطء، أخذت معطفها الرمادي، وغادرت المقهى دون أن تلتفت.

ومنذ تلك اللحظة، صار العالم كله يبدو له كغرفةٍ تُرك بابها مفتوحًا بعد موت صاحبها.

مشى طويلًا بين الشوارع الحجرية. كانت النوافذ مضاءة، والعائلات تجلس خلف الزجاج، تتناول عشاءها، تضحك، تتشاجر، تعيش ببساطةٍ تلك الحياة التي عجز هو دائمًا عن لمسها.

شعر بوحدةٍ جارحة. الوحدة ليست أن تبقى بلا أحد. الوحدة الحقيقية أن تصبح غريبًا حتى عن نفسك.

توقّف عند جسرٍ صغير يعبر النهر. المياه السوداء تتحرك ببطء تحت الضباب، كأن المدينة تخفي أسرارها هناك، في القاع البعيد.

أخرج سيجارة، أشعلها بيدٍ مرتجفة، ثم راقب الدخان يصعد نحو العتمة.

وفجأة، سمع صوت أبيه يعود من زمنٍ بعيد :

"الرجل لا ينهزم بسبب امرأة".

ضحك بمرارة.

كان أبوه يؤمن بالقوة كما يؤمن الجنود بالبندقية. لم يكن يسمح بالحزن داخل البيت، ولا بالبكاء، ولا بالضعف. حتى الموسيقى كان يراها رفاهيةً سخيفة.

لكن فرانز تذكّر تلك الليلة القديمة.

كان في العاشرة حين تسلل خفيةً إلى غرفة أمه، فوجدها تعزف البيانو في الظلام. لم تكن تعلم أنه يراقبها. كانت أصابعها تتحرك ببطء، فيما وجهها غارق في حزنٍ غامض لم يفهمه طفلٌ آنذاك.

وحين انتهت، سألها :

لماذا تبدين حزينة وأنت تعزفين ؟

نظرت إليه طويلًا، ثم قالت :

لأن الموسيقى تقول الأشياء التي نخجل من قولها.

ومنذ ذلك اليوم، صار البيانو وطنه الوحيد.

لكن السنوات مرّت قاسية.

ماتت أمه باكرًا، وتحول البيت إلى ثكنة صامتة تحت سلطة الأب. ثم جاءت الحياة مثل طاحونةٍ عملاقة، سحقت أحلامه الصغيرة، دفعت به إلى العمل، إلى المدن، إلى العلاقات الناقصة، إلى الهروب المستمر.

حتى الحب، حين جاء أخيرًا على هيئة "إيلينا"، لم يستطع الاحتفاظ به.

لأنه كان كلما اقترب من السعادة، شعر برعبٍ خفي.

كأن قلبه تعوّد الخراب حتى صار يخاف النجاة.

ألقى السيجارة في النهر، وعاد يمشي.

وفي داخله، كان شيءٌ جديد يستيقظ ببطء.

شيءٌ يشبه الجوع. جوعٌ هائل إلى الحياة.

+

حين وصل إلى شقته، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.

فتح الباب بصمت، فاستقبلته العتمة الباردة ورائحة الكتب القديمة والخشب المعتّق. خلع معطفه، ثم وقف طويلًا أمام البيانو القابع قرب النافذة.

بدا ككائنٍ عجوز ينتظره منذ سنوات. اقترب منه ببطء، وجلس.

لم يعزف. فقط تأمل المفاتيح البيضاء والسوداء، كأنها أسنان قدرٍ غامض يريد أن يلتهمه أو ينقذه، ولم يقرر بعد.

كانت يداه ساكنتين، لكن داخله كان يعجّ بالضجيج.

"ماذا بقي منك يا فرانز ؟"

سأله صوته الداخلي بمرارة.

"امرأة رحلت... عمرٌ ضاع... مدينة لا تعرف اسمك... وموسيقى لم تنقذك".

أغمض عينيه. وفجأة، شعر بالتعب كله ينهار فوق صدره دفعةً واحدة.

تذكّر أمه في المستشفى.

تذكّر وجه أبيه يوم الجنازة، جامدًا كتمثال.

تذكّر أوّل مرة أحب فيها وفشل. أوّل مرة شعر بأنه زائدٌ عن حاجة العالم. وأول مرة فكّر فيها بالموت دون أن يخبر أحدًا.

همس لنفسه :

لماذا يبدو العيش صعبًا إلى هذا الحد ؟

ثم جاءت الإجابة من مكانٍ عميق داخله :

"لأنك تحاول أن تعيش بعقلٍ متعب وقلبٍ جائع".

فتح عينيه ببطء. وضع أصابعه على المفاتيح أخيرًا.

هبطت نغمة واحدة. مرتجفة. حزينة. تشبه تنهيدة إنسانٍ فقد آخر من يحب.

ثم جاءت ثانية. وثالثة.

وبدأت الموسيقى تتدفّق منه كأنها دمٌ قديم وجد أخيرًا طريقه للخروج.

كان يعزف لا كفنان، بل كغريق. يعزف خوفه، ويتمه، وغضبه، ووحدته، وكل الكلمات التي عجز عن قولها يوم رحلت إيلينا.

وفي لحظةٍ ما، شعر أن البيانو لا يصدر صوتًا. بل يفتح جرحًا. جرحًا هائلًا كان يخفيه تحت طبقات الصمت والتظاهر والقوة.

توقّف فجأة. أنفاسه متسارعة. وعيناه تلمعان بشيءٍ يشبه الدموع.

ثم قال بصوتٍ مبحوح :

يا إلهي...

وأدرك أخيرًا أن الموسيقى ليست أصواتًا. إنها الطريقة الوحيدة كي لا يموت القلب اختناقًا.

+

في الأيام التالية، تغيّر شيءٌ خفي داخله.

صار يستيقظ باكرًا، يفتح النافذة، ويتأمل المدينة وهي تنهض ببطء من نومها الرمادي. صار يرى تفاصيل لم يكن ينتبه لها من قبل: امرأة تسقي الزهور في الشرفة المقابلة، رجلًا عجوزًا يطعم الحمام، طفلًا يركض خلف أمه ضاحكًا.

الحياة لم تتغيّر. هو الذي بدأ يراها.

وفي إحدى الأمسيات، زاره صديقه القديم "مارتن."

كان رسامًا فوضويًا، يضحك كثيرًا ليخفي اكتئابه، ويؤمن أن البشر جميعًا مشاريع خسارة مؤجلة.

جلسا قرب النافذة، يحتسيان النبيذ.

قال مارتن وهو يشعل سيجارته :

سمعت أن إيلينا تركتك.

أجاب فرانز بهدوء :

نعم.

وهل أنت محطم ؟

فكر قليلًا، ثم ابتسم للمرة الأولى منذ أيام.

لا... أنا مكشوف فقط.

نظر إليه مارتن باستغراب.

ما الفرق ؟

قال فرانز وهو يتأمل البيانو :

المحطم ينتهي... أما المكشوف فيرى نفسه بوضوحٍ مؤلم.

صمت مارتن قليلًا، ثم قال :

وهل أعجبتك الحقيقة ؟

أجاب بعد تأملٍ طويل :

لا... لكنها أنقذتني.

ضحك مارتن ساخرًا :

الفنانون يحبون الألم أكثر مما يجب.

ردّ فرانز بهدوء :

لأن الألم صادق... بينما معظم ما نعيشه مجرد تمثيل اجتماعي طويل.

ساد الصمت.

وفي الخارج، كانت الثلوج الأولى تبدأ بالهبوط فوق المدينة.

قال مارتن فجأة :

ماذا ستفعل الآن ؟

نظر فرانز إلى البيانو طويلًا، ثم قال :

سأعزف.

وبعدها ؟

ابتسم ابتسامة صغيرة شاحبة.

سأحاول أن أتعلم كيف أعيش دون خوف.

+

في تلك الليلة، بعد أن رحل مارتن، عاد إلى العزف.

لكن شيئًا مختلفًا حدث هذه المرة.

لم يعد يعزف حزنه فقط. بل صار يعزف الإنسان الذي كان يتمنى أن يكونه.

رجلًا خفيف القلب. قادرًا على الحب دون هلع. قادرًا على الخسارة دون أن ينهار. قادرًا على النظر إلى المرآة دون شعورٍ دائم بالذنب.

كان الليل عميقًا، والمدينة غارقة في الثلج، بينما الموسيقى تملأ الغرفة كضوءٍ دافئ.

وفجأة، شعر بحقيقةٍ بسيطة تضرب قلبه بهدوء :

ربما لم تُخلق الحياة كي نفوز دائمًا. ربما خُلقت كي نشعر. كي نحب. كي ننكسر. ثم ننهض أكثر إنسانية.

أغمض عينيه، واستمر يعزف.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يشعر بأنه يهرب من نفسه. بل يعود إليها.

حين تعزف الجراح

في باريس، كانت الحياة تمشي بكعبٍ عالٍ فوق قلوب الرجال. مدينةٌ لا تنام إلا لتستيقظ أكثر فتنة. المقاهي تغلي بأحاديث الشعراء، والدخان الأزرق يتصاعد كسؤالٍ فلسفيٍّ طويل، والنساء يضحكن بثقةٍ تشبه الخطيئة. أمّا الليل، فكان مغموسًا بالنبيذ والعطور والوعود الكاذبة.

وهناك، وسط ذلك العالم الذي يلمع كقطعة زجاج تحت المطر، بدأ اسم فرانز ليست يصعد كعاصفة موسيقية لا يمكن إيقافها.

كان حين يجلس إلى البيانو، لا يبدو كعازفٍ عادي، بل كرجلٍ يعترف بخطاياه أمام آلةٍ سوداء.

أصابعه لا تضغط المفاتيح، بل تستخرج منها أرواحًا مختبئة. شعره الطويل يتراقص بعنفٍ خفيف، وعيناه تتوهجان كأن داخلهما حريقًا قديمًا لا ينطفئ.

النساء في الصفوف الأولى كنّ ينظرن إليه كما تُنظر المعجزات. بعضهن يبكين دون سبب واضح، وبعضهن يبتسمن كأن الموسيقى لمست شيئًا خفيًا في أعماقهن.

وكان هو يرى النساء بالطريقة نفسها التي يرى بها الألحان :

لغزًا جميلًا... وخطرًا لا يُقاوَم.

+

في إحدى أمسيات الخريف، دخلت ليلين حياته بهدوءٍ يشبه دخول الضوء من نافذة نصف مغلقة.

كانت ابنة رجلٍ ثري من الطبقة الأرستقراطية، ترتدي البساطة كما ترتدي النساء الأخريات المجوهرات.

صوتها ناعم كالمطر فوق زجاج قديم، وعيناها فيهما ذلك الحزن الخفيف الذي يجعل الجمال أكثر صدقًا.

حين قُدِّمت إليه أول مرة، مدت يدها قائلةً بابتسامة مترددة :

سمعتُ أنك تجعل البيانو يتكلم.

رفع عينيه إليها للحظة، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

أحيانًا... يبكي أيضًا.

ضحكت بخفة، لكن شيئًا ما ارتجف داخلها.

ومنذ تلك اللحظة، بدأ القدر يكتب بخطٍ بطيء.

+

كانت تأتي إلى منزله الهادئ لتتعلم العزف.

الغرفة التي يدرّس فيها ضيقة، تتسلل إليها رائحة الخشب القديم والشموع الذائبة. وعلى البيانو كانت دائمًا توجد وردة حمراء ذابلة، لا يعرف أحد من يضعها.

في البداية، كانت العلاقة بريئة كصفحة بيضاء.

يجلس قربها، يشرح لها مواقع الأصابع، ويصحح أخطاءها بنبرةٍ هادئة. لكنها مع الأيام، لم تعد تسمع النغمات بقدر ما صارت تسمع قلبه المختبئ خلفها.

وذات مساء ممطر، كانت تراقب يديه تتحركان فوق المفاتيح كأنهما جناحا طائرٍ حزين.

همست :

كيف تستطيع أن تجعل الموسيقى موجعة إلى هذا الحد ؟

توقف قليلًا.

ثم قال دون أن ينظر إليها :

لأن الموسيقى الحقيقية لا تخرج من اليدين... بل من الجراح.

ساد الصمت.

ذلك النوع من الصمت الذي يولد بين شخصين حين تبدأ روحيهما بالاعتراف دون كلمات.

كانت تسمع المطر خلف النوافذ، بينما تشعر أن شيئًا ما يتكوّن ببطءٍ داخل قلبها... شيء يشبه الخوف ويشبه الحب.

أما هو، فكان يقاوم. يعرف جيدًا أن النساء الأرستقراطيات لا ينتمين إلى رجالٍ مثله.

هو ابن التعب، ابن المسارح الرخيصة والسفر الطويل والفقر القديم.

يعرف أن الطبقات الاجتماعية في باريس أشد قسوة من الشتاء نفسه. لكن القلب لا يفهم المنطق.

+

مرّت الشهور، وصارا يقتربان من بعضهما كما تقترب النار من الورق.

كانا يتنزهان أحيانًا قرب السين . تمشي بجواره بصمت، بينما هو يحدق في الماء كأنه يبحث عن وجهه الضائع داخله.

قالت له مرة:

تبدو حزينًا حتى حين تبتسم.

أجابها بعد لحظة طويلة :

لأن بعض الناس لا يعرفون كيف يعيشون دون حزن.

وأنت ؟

تنهد ببطء.

أنا أخاف الفرح... كل شيء جميل يرحل سريعًا.

التفتت إليه بعينين مرتجفتين.

ربما ليس هذه المرة.

نظر إليها طويلًا. طويلًا جدًا حتى شعرت أن قلبها صار مكشوفًا أمامه.

ثم قال بصوتٍ خافت :

لا تقولي أشياء لا يستطيع رجل مثلي تصديقها.

+

كان الحب ينمو بينهما كزهرةٍ في مكانٍ غير مناسب.

وصار فرانز يرى العالم أخفّ مما كان .السماء أقرب، والموسيقى أدفأ، والليل أقل وحشة.

حتى مرآته القديمة تغيّرت.

للمرة الأولى منذ سنوات، صار يرى في وجهه رجلًا يمكن أن يكون سعيدًا.

لكن السعادة في باريس تشبه الضوء فوق الماء... جميلة، ومستحيلة الإمساك.

+

في صباحٍ بارد، استيقظ على طرقاتٍ عنيفة على بابه.

دخل صديقه القديم وعلى وجهه ارتباك ثقيل.

فرانز... هل سمعت الخبر ؟

رفع رأسه ببطء.

أي خبر ؟

تردد الرجل، ثم قال :

ليلين خُطبت.

شعر للحظة أن الغرفة اختفت. كأن الهواء صار أثقل من أن يُستنشق.

لمن ؟

لنبيلٍ فرنسي... من عائلتها.

ساد صمتٌ طويل. طويل إلى درجة أن صوت الساعة صار مؤلمًا.

ثم ابتسم فرانز فجأة .ابتسامة باهتة، مكسورة.

بالطبع.

قالها كمن يؤكد حقيقة يعرفها منذ البداية لكنه كان يؤجل الاعتراف بها.

+

خرج إلى الشوارع بلا اتجاه.

باريس التي كانت مضيئة بالأمس بدت له فجأة مدينةً باردة، بلا روح.

الوجوه متشابهة، الضحكات مزيفة، والموسيقى القفرانزة من المقاهي تشبه السخرية.

ظل أيامًا يتسكع قرب السين. شاحب الوجه، غائر العينين، يمشي كأنه فقد شيئًا أكبر من الحب نفسه.

وفي الليل، كان يجلس وحيدًا أمام البيانو دون أن يعزف.

يحدق في المفاتيح البيضاء والسوداء وكأنه يرى عمره كله فوقها.

وكان داخله صوتٌ لا يتوقف :

"ما جدوى العبقرية... إن كان الإنسان عاجزًا عن الاحتفاظ بمن يحب؟"

ثم يضحك بمرارة.

"أي نصر هذا الذي يجعل صاحبه وحيدًا كل ليلة؟"

تذكر أباه.

ذلك الرجل الذي قال له يومًا :

لا تثق كثيرًا بالنساء يا فرانز... المرأة نار.

أغمض عينيه.

ثم همس لنفسه:

لكن ماذا يفعل رجلٌ خُلِق من الحطب ؟

+

بدأ يسقط ببطء. صار يشرب أكثر، يسهر أكثر، ويعزف بعنفٍ مرعب.

الجمهور كان يصفق بجنون، بينما هو يشعر أن كل حفلة تستنزف قطعة جديدة من روحه.

وفي إحدى الليالي، بعد حفلٍ صاخب، اقتربت منه امرأة جميلة وهمست بإعجاب :

حين تعزف... أشعر أنك تحب امرأة لا نستطيع منافستها.

نظر إليها طويلًا، ثم قال بابتسامة متعبة :

لأنني لا أعزف للنساء... أنا أعزف للغياب.

لم تفهم قصده.

أما هو، فكان يعرف أن الإنسان أحيانًا لا يحب شخصًا بعينه، بل يحب النسخة التي يصبح عليها حين يكون محبوبًا.

وليلين لم تكن مجرد امرأة. كانت الحياة التي كان يتمنى أن يعيشها.

+

بعد أشهر، التقاها صدفة في إحدى الحفلات الأرستقراطية.

كانت ترتدي فستانًا أبيض، يحيط عنقها عقدٌ من اللؤلؤ، وتبدو هادئة على نحوٍ موجع.

حين رأته، ارتبكت. اقتربت منه ببطء.

فرانز...

قال اسمها فقط :

ليلين.

وكان في نطقه للاسم كل ذلك التعب القديم.

تبادلا صمتًا طويلًا.

ثم قالت بخفوت:

سمعت أنك لم تعد تنام.

ابتسم ساخرًا.

وسمعتُ أنك سعيدة.

اهتزت عيناها.

ليس كل ما يبدو هادئًا يكون سعيدًا.

نظر إليها بحدة، كأنه يحاول أن ينتزع الحقيقة من وجهها.

لماذا فعلتِ ذلك ؟

ارتجفت شفتاها.

لأنني جبنت.

ظل صامتًا.

فأكملت بصوتٍ مكسور :

كنت أخاف أن أخسر عائلتي... اسمي... حياتي كلها.

اقترب خطوة.

وماذا عني ؟

أطرقت رأسها كطفلة مذنبة.

كنت أظن أنك ستنجو.

ضحك ضحكة قصيرة، موجعة.

الناس يظنون دائمًا أن الفنانين ينجون... لأنهم يصفقون لهم كثيرًا.

ثم مال نحوها وهمس :

لكن أكثر الناس هشاشة هم الذين يبدون أقوياء على المسرح.

رفعت عينيها إليه، وكان فيهما دموع خافتة.

للحظةٍ واحدة، شعر أنه يريد أن يحتضنها، أن يسامحها، أن يهرب بها بعيدًا عن باريس كلها.

لكن شيئًا داخله كان قد مات بالفعل. شيء لا تعيده الدموع.

+

عاد تلك الليلة إلى منزله متعبًا. جلس أمام البيانو طويلًا. ثم بدأ يعزف. لا لأجل الجمهور، ولا الشهرة، ولا النساء. عزف كمن يفتح صدره ببطء.

النغمات خرجت حزينة ، عارية ، مليئة بذلك الفراغ الذي يتركه الحب حين يرحل.

وفي منتصف العزف، أدرك فجأة حقيقةً مرعبة :

أن بعض البشر لا يُخلقون للسعادة... بل لتحويل ألمهم إلى جمال.

ابتسم بحزن. ثم همس لنفسه :

ربما لهذا أحببتُ الموسيقى أكثر من البشر... لأنها وحدها لا تخون.

حين تعزف الأرواح المكسورة

بعد سنواتٍ قليلة، صار فرانز ليست حديث باريس، كما لو أنّ المدينة كلّها اتفقت سرًّا على أن تمنحه قلبها دفعةً واحدة.

كانت العربات تتزاحم أمام المسارح، والسيدات يهبطن من عرباتهن بثيابٍ لامعة وقلوبٍ مرتجفة، فقط ليشهدن تلك اللحظة التي يجلس فيها إلى البيانو، يرفع رأسه قليلًا، ثم يترك أصابعه تهبط على المفاتيح كأنها طيورٌ تعرف طريقها إلى السماء.

كان الناس يصفقون له بجنون. نساء الطبقة الأرستقراطية كنّ يتسابقن لالتقاط قفازه بعد الحفل، وبعضهن يخفين خصلاتٍ من شعره داخل رسائل معطرة، كما لو أنهن يحتفظن بأثر قديسٍ لا رجل.

وكانت هناك فتيات يفقدن وعيهن أثناء عزفه، وأخريات يبكين دون أن يفهمن السبب.

أما هو، فكان يزداد وحدةً يومًا بعد يوم.

+

في الخارج، بدا كأميرٍ خرج من الضوء؛ أنيقًا، متماسكًا، تحيطه الهالة ذاتها التي تصنعها الشهرة حول البشر النادرين. لكن داخله كان خرابًا واسعًا، مدينةً مهجورة تتجول فيها الريح.

كل ليلة، بعد انتهاء التصفيق، كان يعود إلى غرفته الفندقية الفاخرة، يخلع معطفه ببطء، ثم يجلس قرب النافذة الطويلة المطلة على شوارع باريس المبتلة بالمطر.

وكان يسأل نفسه السؤال ذاته :

لماذا أشعر بهذا الفراغ، رغم أن العالم كلّه يهتف باسمي ؟

لم يكن التصفيق يملأ شيئًا. كان مجرد ضجيجٍ كثيف يغطي صمت الروح، لا أكثر.

كان يعرف أن الناس يحبون صورته، لا حقيقته .يعشقون الرجل الذي يخلق العواصف فوق البيانو، لكن أحدًا لا يريد أن يرى الطفل الفقير الذي نام جائعًا قديمًا، ولا الشاب الذي ظل يهرب من خوفه عبر الموسيقى.

وفي بعض الليالي، كان يشعر أن كل حفلة ليست إلا طريقةً مؤقتة لتأجيل انهياره.

+

وفي إحدى أمسيات الشتاء، حين كانت باريس تغرق في بردٍ رطب يشبه الحنين، التقى الكونتيسة ماري داغو.

كانت القاعة مزدحمةً حتى الاختناق، والشموع تلمع فوق الجدران الذهبية كأنها نجومٌ محبوسة .

دخلت متأخرة. لم ينتبه إليها أحد أول الأمر، لكنها لفتت نظره فورًا.

كانت ترتدي ثوبًا أزرق داكنًا ينساب بهدوء حول جسدها، ووجهها يحمل ذلك النوع النادر من الحزن ؛ الحزن النبيل الذي لا يطلب شفقة أحد.

لم تكن الأجمل بين النساء، لكنه شعر، لسببٍ غامض، أنها تشبهه. شخصٌ يتقن الابتسام رغم الكسور.

ومن فوق المسرح، بينما كانت أصابعه تعزف، ظلّ يراقبها خلسةً.

كانت لا تصفق كثيرًا، ولا تبتسم كالبقية. فقط تنظر إليه بثبات، كأنها تسمع شيئًا أعمق من الموسيقى نفسها.

وحين انتهى الحفل، شعر بتعبٍ غريب، كأن روحه استُنزفت كاملة.

كان الناس يحيطون به كالعادة، يمدحونه، يطلبون مصافحته، يرمقونه بإعجابٍ جائع. لكنه كان يبحث عنها بعينيه وسط الزحام. وحين وجدها قرب إحدى النوافذ الطويلة، اقترب منها دون أن يفكر.

قال بصوتٍ خافت :

هل أعجبتك الموسيقى ؟

رفعت عينيها إليه مباشرة.

وكان في نظرتها شيء أربكه؛ شيء لا يشبه نظرات المعجبين المعتادة.

قالت بهدوء :

أخافتني.

ابتسم مرتبكًا.

و لماذا ؟

صمتت لحظة، ثم قالت :

لأنك تعزف كأنك تطلب النجدة.

تجمّد شيء داخله.

لأول مرة منذ سنوات، شعر أن أحدًا رآه حقًا.

ليس الفنان. ليس الأسطورة. بل الرجل المختبئ خلف كل ذلك الضوء.

خفض عينيه قليلًا، ثم ضحك بخفةٍ مرتبكة.

يبدو أنكِ تبالغين في التحليل.

أجابته :

لا. أنت فقط متعب جدًا.

كان يمكنه أن يرد بجملةٍ ساخرة وينهي الحديث، كما يفعل دائمًا، لكنه لم يستطع.

لأن كلماتها أصابت المكان الذي ظل يخفيه عن الجميع.

+

في تلك الليلة، لم يستطع النوم. ظلّ يتمشى داخل غرفته بينما المطر يضرب الزجاج. وكان صوتها يلاحقه :

" أنت تعزف كأنك تطلب النجدة ".

جلس أخيرًا قرب البيانو الصغير الموجود في الغرفة، ووضع أصابعه فوق المفاتيح دون أن يعزف.

ثم همس لنفسه :

وهل كنت أفعل ذلك فعلًا ؟

أغمض عينيه.

فجأة ، رأى حياته كلها كأنها مقطوعة موسيقية طويلة مليئة بالصراخ المقنّع بالنغم.

كل نجاحٍ حققه كان محاولةً يائسة ليقنع نفسه أنه يستحق الحب. كل تصفيقٍ كان ضمادةً مؤقتة فوق خوفٍ قديم. وكل امرأةٍ أحبته، أحبّت صورته أكثر مما أحبته هو.

أما هذه المرأة... فقد خافت منه. وذلك، بطريقةٍ غريبة، جعله يشعر بالأمان.

+

بدأت لقاءاتهما تتكرر بعد ذلك. كانا يتمشيان طويلًا قرب نهر السين، بينما باريس تغرق في ضباب الشتاء. وكان يشعر معها براحةٍ لا يفهمها.

هي أيضًا كانت تحمل خرابها الخاص. امرأةً عاشت داخل زواجٍ بارد ، محاطةً بالبذخ والوحدة معًا. تعلمت كيف تخفي ألمها خلف الرقي، وكيف تبتسم في الصالونات الأرستقراطية بينما قلبها يذبل ببطء.

وذات مساء، بينما كانا يجلسان في مقهى صغير، سألته :

ممّ تهرب يا فرانز ؟

تأمل فنجانه طويلًا قبل أن يجيب :

من نفسي، على الأغلب.

ابتسمت بحزن.

والموسيقى تساعدك ؟

ضحك ضحكةً قصيرة بلا فرح.

الموسيقى لا تساعدني... الموسيقى هي الطريقة الوحيدة التي أعرف بها كيف أنهار دون أن يراني أحد.

ظلّت صامتة. ثم قالت بهدوء :

لهذا يحبك الناس... لأنهم يسمعون هشاشتهم فيك.

رفع رأسه نحوها ببطء.

كانت المرة الأولى التي يشعر فيها أن أحدًا يفهمه دون أن يشرح نفسه.

+

ومع الأيام، بدأ شيء داخله يتغيّر. صار أقل خوفًا من الصمت .وأقل حاجةً للتصفيق.

كان يكتشف، للمرة الأولى، أن الإنسان لا يموت من الوحدة فقط... بل يموت أيضًا حين يضطر كل يوم أن يتظاهر بالقوة.

وذات ليلة، بعد حفلةٍ صاخبة، هربا من القصر المكتظ إلى شارعٍ جانبي هادئ.

كان الثلج ينزل خفيفًا، وباريس تبدو بعيدة، كأنها مدينة أخرى.

توقف فجأة وقال لها :

هل تعلمين ما أكثر شيءٍ يرعبني ؟

نظرت إليه بصمت.

قال :

أن ينتهي كل هذا... ثم أكتشف أن أحدًا لم يحبني حقًا.

اقتربت منه ببطء.

بل أنت من لم تسمح لأحد أن يحبك.

ارتجف قلبه بعنف. لأنها كانت محقّة.

لقد قضى عمره يقدّم للناس نسخةً مبهرة من نفسه، ثم يغضب لأنهم لم يروا ما خلفها.

وكان يخشى، في أعماقه، أنه لو كشف هشاشته كاملةً، فلن يبقى أحد.

همس بصوتٍ متعب :

أخاف أن يراني الناس ضعيفًا.

ابتسمت ابتسامة صغيرة يشوبها الأسى.

البشر لا يحبون الكمال يا فرانز... البشر يثقون بمن يتألم مثلهم.

صمت طويلًا. ثم نظر إلى السماء البيضاء فوقه وقال :

أحيانًا أشعر أنني طفلٌ ضائع يرتدي بدلة رجلٍ عظيم.

أجابته :

كل العظماء كذلك... الفرق فقط أنهم يتقنون إخفاء الأمر.

ضحك للمرة الأولى بصدق.

ضحكة خفيفة، دافئة، كأنها خرجت من مكانٍ لم تصله الشمس منذ زمن.

+

وفي تلك اللحظة، أدرك شيئًا بسيطًا وقاسيًا معًا :

أن الإنسان قد يقضي حياته كلها يبحث عمّن يصفق له، بينما كل ما يحتاجه حقًا...

شخصٌ واحد يراه على حقيقته، ثم يبقى.

حينَ تعبَ الحُلمُ من الهروب

لم تكن ماري تعرف، وهي تغلق باب بيتها الأخير خلفها، أنّ بعض الأبواب لا تُغلق فعلًا، بل تبقى مواربةً داخل الروح، تُصدر صريرًا خافتًا كلما حاول الإنسان أن ينام بسلام.

خرجت من زواجٍ باردٍ يشبه غرفةً بلا نوافذ. سنواتٌ كاملة وهي تجلس قبالة رجلٍ لا يراها، يحدّثها عن الفواتير والعمل والطقس، بينما كانت روحها تموت ببطء، كوردة تُترك في كتابٍ قديم حتى تفقد لونها وعطرها معًا.

ثم جاء فرانز. دخل حياتها كما يدخل الضوء إلى كنيسةٍ مهجورة؛ بهدوءٍ أولًا، ثم بقدرةٍ غامضة على إيقاظ الغبار النائم فوق الأشياء.

كان يعزف البيانو في أمسيةٍ صغيرة بمدينةٍ رمادية، وحين رفعت ماري عينيها نحوه للمرة الأولى، شعرت بشيءٍ يرتجف داخلها. لم يكن وسيمًا على نحوٍ تقليدي، لكنّ عينيه كانتا تحملان ذلك الحزن النبيل الذي يجعل المرأة تشعر أنّ الرجل يعرف أسرار العالم، وأنّه تأذّى كثيرًا حتى صار بهذا العمق.

بعد الحفل، اقترب منها وسألها :

هل أحببتِ الموسيقى ؟

ابتسمت بحذرٍ يشبه خوف الأطفال :

شعرتُ كأنّك لا تعزف... بل تتذكّر شيئًا يؤلمك.

نظر إليها طويلًا، ثم قال بصوتٍ خفيض :

لأنّ الألم وحده يجعل الفن صادقًا.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت الحكاية.

تحوّلت لقاءاتهما إلى هروبٍ طويل من العالم. كانت ماري تشعر، كلما جلست معه، أنّ الحياة التي عاشتها قبل فرانز لم تكن حقيقية، وأنّها كانت مجرّد تدريبٍ طويل على هذه اللحظة.

تركَت زوجها دون ضجيج . لم تصرخ. لم تبرّر . فقط كتبت رسالةً قصيرة :

" أعتذر لأنني بقيت طويلًا بعد موت قلبي ".

ثم رحلت معه إلى سويسرا.

هناك، بين الجبال البيضاء والبحيرات الهادئة، عاشا حبًا يشبه الأحلام التي لا يصدقها الإنسان حتى وهو داخلها.

استأجرا بيتًا خشبيًا صغيرًا يطلّ على بحيرةٍ زرقاء، وكانت النوافذ تستقبل الضباب كل صباح، كأنّ الغيوم تأتي لزيارتهما.

كان فرانز يستيقظ مبكرًا، يُعدّ القهوة بصمت، ثم يجلس قرب النافذة يحمل كتابًا أو يدخّن ببطء، بينما تراقبه ماري من بعيد.

أحيانًا كانت تراه كطفلٍ تائه. وأحيانًا كرجلٍ يعرف أكثر مما يجب عن الحزن.

وفي الليالي الطويلة، كان يعزف لها.

يجلس أمام البيانو الخشبي القديم، فتنساب الموسيقى من أصابعه كأنّها اعترافاتٌ لا يستطيع قولها بالكلمات.

كانت ماري تراقبه بصمت، وتشعر أنّ هذا الرجل لا يعيش على الأرض تمامًا، بل في مكانٍ غامض بين الألم والجمال، بين الرغبة في الحياة والرغبة في الهروب منها.

وذات ليلة، سألته وهي مستلقية قربه :

ممَّ تهرب يا فرانز ؟

ظل صامتًا للحظات، ثم ابتسم تلك الابتسامة الحزينة التي صارت تخيفها .

و قال :

من اللحظة التي يعتادني فيها شيء.

لم تفهم جوابه تمامًا، لكنها شعرت ببردٍ خفيف يعبر قلبها.

ومع الأيام، بدأت الحقيقة تظهر ببطءٍ مؤلم.

كان فرانز يحبّ البدايات أكثر من الأشياء نفسها .يحبّ الطريق أكثر من الوصول. الاشتياق أكثر من الحب. والنساء اللواتي ينظرن إليه بدهشة، لا المرأة التي تحفظ صمته اليومي وتعرف عدد السجائر التي يدخّنها حين يضيق صدره.

الهدوء الذي حلمت به ماري، كان يخنقه.

كانت تراه أحيانًا يقف طويلًا قرب النافذة، ينظر إلى القطار المارّ أسفل الجبل، كأنّ جزءًا منه يريد الركض خلفه.

ثم بدأت الرحلات. مرةً إلى فيينا لإحياء أمسية. ثم إلى براغ. ثم باريس. وفي كل مرة يعود أكثر غيابًا.

كانت ماري تشعر أنّه يجلس معها بجسده فقط، بينما روحه تركض في مكانٍ آخر لا تستطيع الوصول إليه.

وذات مساء، قالت له وهي ترتب كتبه :

لماذا أشعر أنّك تودّعني باستمرار ؟

تنهد بضيق :

لأنكِ تبالغين في التفكير.

اقتربت منه :

لا... أنا فقط أحبك أكثر مما ينبغي.

أشاح وجهه، وكأنّ الحب أصبح عبئًا ثقيلًا فوق كتفيه.

في تلك الليلة، لم ينم . ظلّ يتجوّل في البيت كروحٍ قلقة، يدخّن سيجارةً وراء أخرى. وكانت ماري تراقبه من السرير بصمت، وتشعر أنّ الرجل الذي هربت معه من العالم بدأ يهرب منها هي أيضًا.

أما فرانز، فكان غارقًا داخل نفسه. كان يحبّها، نعم. لكنّه كان يخاف من الحب حين يتحوّل إلى بيت. إلى مواعيد ثابتة. إلى امرأةٍ تنتظر عودته كل مساء.

في أعماقه، كان يشعر أنّ الاستقرار شكلٌ آخر من الموت.

طفولته القديمة كانت تطارده . أبٌ قاسٍ لا يعترف به . أمٌّ خافتة تمشي في البيت كأنها تستأذن الهواء. طفلٌ صغير تعلّم مبكرًا أن النجاة تكون بالهروب.

كبر فرانز وهو يصدّق أنّه إذا بقي طويلًا في مكانٍ واحد، فسوف يتحوّل إلى شخصٍ عادي . وكان يخاف العاديين أكثر من خوفه من الوحدة.

لهذا أحبّ التصفيق . السفر . الفنادق العابرة. النظرات المندهشة .النساء اللواتي يرين فيه أسطورةً بعيدة.

أما الحب الحقيقي... الحب الذي يطلب البقاء... فكان يربكه.

وفي المقابل، كانت ماري تتغيّر هي الأخرى.

في البداية، أحبّت غموضه. ثم بدأت تغار منه. من الموسيقى .من المدن. من النساء اللواتي يبتسمن له بعد الحفلات. حتى من الحزن الذي يسكنه، لأنها شعرت أنّه يمنح ذلك الحزن مساحةً أكبر مما يمنحها هي.

وذات مساء، عاد متأخرًا من رحلةٍ قصيرة.

كان المطر يضرب النوافذ بعنف، والريح تعصف بالأشجار المحيطة بالبيت.

دخل فرانز متعبًا، خلع معطفه بصمت، ثم جلس قرب المدفأة.

لكن ماري لم تتحرك لاستقباله هذه المرة. كانت تجلس في الظل، وعيناها حمراوان من البكاء.

قال بهدوء :

لماذا أنتِ مستيقظة ؟

ضحكت بمرارة :

لأنّ النساء لا ينمن حين يشعرن أنّ الرجل الذي يحببنه يبتعد.

أغمض عينيه بتعب :

ليس الليلة يا ماري... أرجوكِ.

لكنّها اقتربت منه أخيرًا، وكل الخوف المتراكم في قلبها ينفجر دفعةً واحدة :

قل الحقيقة... هل تعبتَ مني ؟

رفع رأسه ببطء . ولأول مرة، بدا عاجزًا عن الكذب.

همس :

تعبتُ من نفسي.

سقطت الكلمات فوقها كحجارةٍ باردة.

قالت وهي تحاول ألّا تبكي :

و أنا ؟ ماذا أفعل بكل هذا الحب ؟

نظر إليها طويلًا، نظرة رجلٍ يعرف أنّه سيؤذي شخصًا لا يستحق الأذى.

ثم قال :

كان يجب ألّا تحبّيني بهذه الطريقة.

شعرت ماري بشيءٍ ينكسر داخلها.

اقتربت أكثر، حتى صارت أمامه تمامًا :

لا... أنت السبب. أنت من جعلني أصدّق أنّ الهارب يمكن أن يستقر.

ساد الصمت.

وكان المطر بالخارج يزداد عنفًا، كأنّ الليل نفسه يستمع إليهما.

ثم قالت بصوتٍ مكسور :

أنت لا تعرف كيف تحب يا فرانز.

أدار وجهه نحو النافذة، وبدا للحظة كأنّه عجوزٌ متعب، لا موسيقيّ ساحر.

وقال بهدوءٍ يشبه الاعتراف :

بل أعرف... لكنني لا أستطيع البقاء.

تلك الجملة كانت النهاية.

ليس لأنّها قاسية، بل لأنها صادقة إلى حدٍّ موجع.

اقترب منها، كأنّه يريد لمس يدها، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

ثم حمل حقيبته الصغيرة. ببساطةٍ مرعبة. كما يغادر الموسيقي آخر نغمة، ويترك الصمت يواجه مصيره وحده.

أُغلق الباب.

وبقيت ماري واقفةً في منتصف الغرفة، تحدّق في الفراغ الذي تركه خلفه.

شعرت فجأة أنّ البيت صار أكبر من اللازم . أبرد من اللازم . وأكثر وحدةً مما تحتمل روحٌ واحدة.

جلست قرب البيانو بعد ساعات.

مرّرت أصابعها فوق المفاتيح ببطء، فخرج صوتٌ مرتبك.

ثم تذكّرت قوله ذات ليلة :

" بعض الناس خُلقوا ليُحبّوا الطريق، لا البيوت ".

حينها فقط فهمته.

لم يكن فرانز شريرًا. ولا خائنًا بالمعنى المعتاد. كان رجلًا مثقوب الروح، كلما حاول أحدهم احتضانه، تسرب من بين يديه كالماء.

أما هي، فقد كانت تبحث عن وطن.

وكان هو... مجرد رحلة جميلة، طويلة، ومؤلمة.

وفي الصباح التالي، فتحت النافذة.

دخل الضباب ببطء، وامتلأت الغرفة برائحة المطر والخشب البارد.

أغمضت عينيها، وشعرت أنّ الحب لا يموت حين يرحل أحدهم... بل حين نتوقف عن انتظار عودته.

وللمرة الأولى منذ زمنٍ طويل، لم تنتظره.

حين صار البيانو مقبرةً للأصابع

مرّت السنوات فوق روح فرانز كأنها عربات قطارٍ لا تكفّ عن العويل.

كان كلّ شيءٍ يتحرّك بسرعةٍ مخيفة: المدن، النساء، التصفيق، الليالي، والوجوه التي يلتقيها ثم يفقدها قبل أن يحفظ ملامحها جيدًا.

في فيينا، كانوا يستقبلونه كإمبراطورٍ هبط من الموسيقى . وفي باريس، كانت السيدات يتزاحمن حوله كما لو أنّ العزف نوعٌ من السحر الأسود . أما روما، فكانت تمنحه ذلك الحزن النبيل الذي يجعل الإنسان يشعر بأن الخراب يمكن أن يكون جميلًا أحيانًا.

لكن أحدًا لم يكن يرى التعب المختبئ خلف أصابعه.

كان يعزف بعنفٍ أكبر كلّ عام ، كأنّه يحاول أن ينتصر على شيءٍ داخله. وحين ينتهي الحفل، ويصفّق الجميع واقفين، كان ينحني بابتسامته اللامعة، بينما يشعر في أعماقه أنّ روحه تهبط درجةً أخرى نحو العتمة.

صار يحبّ أكثر أيضًا. كلّ مدينةٍ كانت تمنحه امرأة .وكلّ امرأةٍ كانت تمنحه بعض الدفء المؤقت، ثم تترك في قلبه فراغًا جديدًا .

وكان يهرب دائمًا قبل أن يعتاد البقاء . كان يخشى الألفة. الألفة تعني أن يراك أحدهم على حقيقتك، وفرانز لم يعد يحتمل النظر إلى نفسه، فكيف يحتمل أن يراه الآخرون ؟

وفي إحدى الليالي الباردة في بودابست، عاد إلى غرفته بالفندق متأخرًا.

كانت المدفأة تخبو ببطء، والنافذة ترتجف تحت المطر .خلع قفازيه بصمت، فرأى الرسالة فوق الطاولة.

تأمّل الختم طويلًا. شيءٌ غامض في داخله أخبره أنّ الحياة تستعدّ لصفعةٍ جديدة.

فتح الرسالة. مرض ابنه.

قرأ السطور مرةً أولى، ثم ثانية، ثم وضع الورقة جانبًا كأنّ الكلمات لم تصل بعد إلى قلبه.

اقترب من النافذة . في الشارع، كان رجلٌ مخمور يغنّي بصوتٍ مكسور، وعربةٌ تجرّها الخيول تشقّ المطر ببطء. كلّ شيءٍ بدا عاديًا على نحوٍ مستفز.

همس لنفسه:

كيف يمكن للعالم أن يبقى هادئًا بينما ينهار أحدهم من الداخل ؟

جلس إلى البيانو الصغير في الغرفة، وضع أصابعه على المفاتيح، لكنه لم يعزف. ظلّ ساكنًا.

كان يشعر للمرة الأولى أنّ الموسيقى عاجزة. بعد أسابيع، وصل خبرٌ آخر. موت بلاندين.

ابنته الرقيقة التي كانت تضحك بعينيها قبل فمها. الطفلة التي كان يراها دائمًا كأنها الجزء الوحيد النظيف في حياته الفوضوية.

قرأ الرسالة ببطء شديد. ثم أعاد طيّها بعنايةٍ غريبة، كما لو أنّ الحذر قد يمنع الموت من أن يصبح حقيقيًا.

دخل خفرانزه العجوز يسأله :

سيدي... هل أنت بخير ؟

رفع فرانز رأسه نحوه. كانت عيناه هادئتين على نحوٍ مرعب.

قال بصوتٍ خافت :

هل جرّبت يومًا أن تخسر شخصًا دون أن تصرخ ؟

تردّد الرجل ، ثم قال :

البكاء يريح القلب أحيانًا.

ابتسم فرانز ابتسامة باهتة.

لا... بعض الأحزان أعمق من الدموع.

ثم صرفه بإشارةٍ صغيرة.

+

حين بقي وحده، شعر أنّ الغرفة تضيق حوله .الجدران تقترب .الهواء أثقل من أن يُستنشق.

أغمض عينيه، فرأى بلاندين طفلةً تركض نحوه في حديقةٍ قديمة، تضحك وهي تمسك طرف معطفه.

أبي، اعزف لي شيئًا حزينًا... لكن ليس حزينًا جدًا.

فتح عينيه بسرعة، كأنّ الذكرى صفعة.

وهمس :

سامحيني... لم أعرف كيف أحمي أحدًا.

لكن الحياة لم تكتفِ بذلك.

كانت تحتفظ له بالطعنة الأخيرة.

وصل الخبر ذات مساءٍ رمادي في روما.

كوزيما هربت مع فاجنر.

فاجنر... صديقه . تلميذه . الرجل الذي فتح له قلبه كما يفتح الأب باب بيته لابنه.

قرأ الرسالة مرةً واحدة فقط.

ثم جلس. بلا حركة. لم يغضب .لم يثر. لم يحطم شيئًا كما يفعل الرجال حين تُهان قلوبهم.

بل شعر بشيءٍ أبرد من الحزن. شعر بأنّ الحياة تنظر إليه وتبتسم بسخريةٍ قديمة.

ظلّ صامتًا طويلًا حتى خُيّل للخفرانز أنّه لم يسمع.

ثم قال فجأة :

مضحك... أليس كذلك ؟

اقترب الخفرانز بحذر :

ماذا يا سيدي ؟

رفع فرانز عينيه نحوه، وكانت فيهما هوّةٌ باردة.

كلّ من أحببتهم مضوا... كأنني خُلقت لأودّع فقط.

ثم ضحك. ضحكة قصيرة، يابسة، تشبه خشبًا ينكسر في الشتاء. وأضاف :

حتى أبنائي... لم أورثهم سوى التيه.

ساد الصمت. وكان ذلك الصمت أثقل من أي بكاء.

في تلك الليلة، لم يعزف.

جلس أمام البيانو الكبير في غرفته بالفندق.

شمعتان فقط كانتا تضيئان المكان، فتبدو الظلال على الجدران كأشباحٍ تتنفّس ببطء.

مدّ يده نحو المفاتيح البيضاء. توقفت أصابعه فوقها.

فجأة شعر أنّ البيانو لم يعد آلة. صار مقبرة. كلّ مفتاحٍ يحمل وجهًا.

بلاندين تبتسم. كوزيما تبتعد دون أن تلتفت. أصدقاؤه الذين ماتوا .النساء اللواتي أحببنه ثم بكين بسببه.

وهو... في المنتصف، يعزف فوق الجميع كي لا يسمع صوته الداخلي.

ارتجفت أنفاسه. ولأول مرة منذ سنوات، خاف من الموسيقى.

قال في سرّه:

ماذا لو كنت أعزف طوال عمري فقط كي أهرب من نفسي ؟

كان السؤال مرعبًا. لأنّه عرف الجواب فورًا. تذكّر طفولته الفقيرة .تذكّر الجوع القديم الذي لا علاقة له بالطعام. ذلك الشعور الوحشي بالنقص، بالحاجة إلى أن يصفّق العالم كي يصدّق هو أنّه يستحقّ أن يعيش.

همس لنفسه :

كنت أظنّ المجد خلاصًا.

ثم ابتسم بمرارة.

لكنه كان قفصًا ذهبيًا فقط.

في الخارج، كانت روما تغرق في مطرٍ خفيف. صوت العربات يمرّ بعيدًا، والمدينة تمضي في حياتها غير عابئة بانهيار رجلٍ شهير.

شعر فجأة بوحدةٍ هائلة. وحدة لا تشبه غياب الناس، بل غياب المعنى.

قال بصوتٍ مسموع هذه المرة :

ما فائدة أن يحبّك العالم إن كنت عاجزًا عن الاحتفاظ بمن تحب ؟

لم يجبه أحد. حتى الصدى بدا متعبًا. اقترب من المرآة. رأى رجلاً أنهكته التصفيقات.

الشعر الطويل الذي كان يثير إعجاب النساء صار أشعث كحزنٍ قديم، والعينان اللتان أضاءتا المسارح في أوروبا امتلأتا بذلك البريق الباهت الذي يسبق الانطفاء.

حدّق في نفسه طويلًا. ثم قال :

من أنت ؟

كان السؤال حقيقيًا.

لأنّ فرانز شعر فجأة أنّه عاش عمره كلّه داخل شخصية اخترعها الناس له: العبقري، الساحر، أسطورة البيانو...

أما الإنسان الحقيقي خلف تلك الأسماء، فلم يعرفه أحد. ربما حتى هو نفسه.

عاد إلى الكرسي ببطء. جلس أمام البيانو ثانية. هذه المرّة ضغط مفتاحًا واحدًا فقط. خرج الصوت ضعيفًا، وحيدًا، كأنّه طفلٌ ضائع في كنيسةٍ مهجورة. ارتعش قلبه. ثم ضغط مفتاحًا آخر. وبدأ يعزف ببطء شديد.

لا استعراض. لا عظمة. لا رغبة في الإدهاش.

كان يعزف كما لو أنّه يعترف أخيرًا.

النغمات خرجت متعبة، عارية، مليئة بذلك الحزن الذي لا يحتاج إلى كلمات.

وفجأة، شعر أنّه يبكي. ليس بعينيه. بل من مكانٍ أعمق بكثير. مكانٍ ظلّ مغلقًا سنوات طويلة.

استمرّ العزف حتى اقترب الفجر. والسماء خلف النافذة بدأت تميل إلى الرماد الشاحب.

توقّف أخيرًا. نظر إلى يديه طويلًا.

همس :

كم شخصًا دفنتُ بهاتين اليدين دون أن أدري ؟

ثم أسند رأسه إلى البيانو وأغمض عينيه.

في تلك اللحظة، لم يكن الموسيقار الأشهر في أوروبا.

لم يكن العبقري الذي تهتف له المسارح.

كان مجرد رجلٍ متعب، أدرك متأخرًا أنّ الإنسان قد يربح العالم كلّه... ثم يخسر دفءَ بيتٍ صغير، وضحكة ابنة، وطمأنينة قلب.

وحين أشرقت الشمس أخيرًا، بدا الضوء على وجهه شاحبًا كأنه نورٌ يصل إلى مدينةٍ مهجورة بعد فوات الأوان.

حين تعبَت الموسيقى من التصفيق

مع الشيخوخة، بدأ الصخب يخفت تدريجيًّا، كمدينةٍ أطفأت آخر مصابيحها بعد احتفالٍ طويل.

لم يعد فرانز الرجلَ الذي يدخل القاعات فتلتفت الرؤوس إليه كما تتبع الطيورُ أثر الضوء.

تجاعيد رفيعة استقرّت حول عينيه، كأن السنوات حفرت عليه اعترافاتها بصمت، وخصلات شعره البيضاء منحته ملامح نبيٍّ متعبٍ عاد من رحلةٍ طويلة دون أن يعثر على الأرض التي وُعد بها.

صار أقلَّ اندفاعًا نحو النساء، وأكثر ميلًا إلى العزلة. لم تعد الحفلات توقظ فيه النشوة نفسها، ولا التصفيق يثير في قلبه تلك الرجفة القديمة التي كانت تشبه السكر.

كان يسمع الضحكات من حوله، لكنها تصل إليه بعيدةً، باهتةً، كأنها تأتي من غرفةٍ مغلقة في بيتٍ مهجور.

وفي الأمسيات الطويلة، حين يعود إلى منزله الواسع، كان يشعر أن الأثاث نفسه يحدّق إليه بشفقة.

البيانو الأسود يقف قرب النافذة مثل حيوانٍ عجوز ينتظر لمسة صاحبه الأخيرة، والكؤوس البلورية فوق الرفوف تلمع ببرودةٍ أرستقراطية لا حياة فيها.

كان يمشي داخل البيت ببطء، ويهمس أحيانًا :

ما الذي بقي مني ؟

ثم يضحك ضحكة قصيرة، خاوية، ويجيب نفسه :

بقي التعب فقط.

+

في شبابه، كان يظن أن العالم خُلق لأجله. حين كان يعزف، كانت النساء يقتربن منه كما تقترب الفراشات من النار، وكان الرجال ينظرون إليه بحسدٍ خفيٍّ مغلف بالإعجاب.

تعلّم مبكرًا أن الموسيقى تمنح صاحبها سلطةً لا يملكها الملوك .كان يكفي أن يلمس المفاتيح حتى تتغيّر ملامح الوجوه، حتى تبكي امرأةٌ لا تعرف لماذا تبكي، أو يرتجف رجلٌ أخفى حزنه لسنوات.

لكن فرانز، وسط كل هذا المجد، كان يحمل فراغًا قديمًا لا يفهمه. فراغًا يشبه غرفةً مظلمة في أعماقه، كلما حاول أن يملأها بالحب اتسعت أكثر.

كان يخاف الوحدة بطريقةٍ مرضيّة. لذلك لم يكن يحب النساء بقدر ما كان يخاف غيابهن.

وحين تتركه امرأة، لا يحزن عليها تحديدًا، بل على ذلك الصمت الذي تتركه خلفها.

+

ذات ليلة شتوية، بعد حفلٍ صاخب في فيينا، عاد مع امرأةٍ شابة كانت تضحك كثيرًا. ضحكتها كانت حادّة، لامعة، تشبه زجاجًا ملوّنًا تحت الشمس.

سألته وهي تخلع معطفها الأحمر :

هل صحيح أنك لا تنام بعد الحفلات ؟

أجاب وهو يصبّ النبيذ :

لأن الموسيقى تظلّ مستيقظة داخلي.

اقتربت منه مبتسمة :

أم لأنك تخاف أن تبقى وحدك ؟

تجمّد قليلًا.

لم يكن يحبّ هذا النوع من الأسئلة؛ الأسئلة التي تفتح النوافذ داخل الروح فجأة.

قال ببرودٍ متعمّد :

الجميع يخاف الوحدة.

هزّت رأسها :

لا... بعض الناس يتصالحون معها، أمّا أنت فتطارد الضجيج كي لا تسمع نفسك.

شعر بانزعاجٍ غامض. أراد أن يغيّر الحديث، لكن كلماتها بقيت معلّقة في داخله كجرسٍ بعيد.

وفي تلك الليلة، بعدما نامت المرأة، ظلّ جالسًا قرب النافذة حتى الفجر.

المدينة تحت المطر كانت تبدو ككائنٍ حزين يختبئ تحت معطفٍ رمادي.

حدّق طويلًا في انعكاس وجهه على الزجاج، وفكّر :

" متى أصبحتُ غريبًا عن نفسي إلى هذا الحد ؟ "

كان يشعر أحيانًا أن شخصيّته الحقيقية ضاعت في مكانٍ ما، وأن الذي يعيش الآن ليس سوى نسخةٍ متعبة تؤدي دور فرانز الشهير.

+

ومع السنوات، صار التعب أكثر وضوحًا. لم يعد قلبه يحتمل العلاقات العابرة. كل امرأةٍ جديدة كانت تمنحه الدهشة ذاتها في البداية، ثم تترك داخله البرودة نفسها في النهاية.

كان يراقب وجوه النساء بعد الحب، ويشعر بحزنٍ غريب. بعضهنّ ينظرن إليه بإعجاب، وبعضهنّ بتعلّق، وأخريات بشفقةٍ خفيّة.

أما هو، فكان يشعر دائمًا بأنه يقف خارج اللحظة، كمتفرّجٍ يرى حياته من بعيد.

وذات صباح، استيقظ على خوفٍ مفاجئ من الموت.

ليس الموت الجسدي تحديدًا، بل فكرة أن تنتهي حياته دون أن يعرف لماذا عاشها أصلًا.

نهض مرتبكًا، وفتح النوافذ بعنف ، كأن الهواء قد ينقذه من فكرةٍ سوداء تحاصره.

لكن المدينة كانت باردة، والسماء منخفضة، والعالم كلّه بدا كئيبًا بطريقةٍ غير مفهومة.

حينها قرّر أن يرحل لبعض الوقت.

لا حفلات. لا نساء. لا مسارح. فقط صمت.

+

قادته رحلته إلى ديرٍ قديم فوق تلٍّ منعزل، تحيط به أشجار السرو والصنوبر. كان المكان بسيطًا حدّ الزهد؛ جدران حجرية، ممرّات ضيقة، وروائح خشبٍ قديم تختلط بالبخور.

في البداية شعر بالنفور. كيف يستطيع هؤلاء الرهبان احتمال هذا الصمت الثقيل ؟

لكنه، بعد أيام، بدأ يلاحظ شيئًا غريبًا. وجوههم كانت هادئة. هادئة بطريقةٍ لم يرها في وجوه المشاهير، ولا العشّاق، ولا الموسيقيين، ولا حتى الأطفال. هدوء يشبه بحيرةً ساكنة في مساءٍ بلا ريح.

وفي أحد المساءات، جلس قرب نافذةٍ مطلّة على الغروب.

كان الضوء البرتقالي ينساب على الجدران الحجرية بهدوءٍ سماوي، والجرس البعيد يرنّ كأن الزمن نفسه يصلّي.

هناك، أحسّ فرانز للمرة الأولى أن الحياة كلّها لم تكن سوى رحلة بحثٍ طويلة عن الطمأنينة.

دخل الكاهن العجوز وجلس قربه دون كلام. كان رجلًا نحيلًا، بعينين صافيتين على نحوٍ مقلق، كأنهما ترى ما لا يُقال.

ظلّا صامتين دقائق طويلة.

ثم قال فرانز بصوتٍ خافت :

أمضيت عمري أبحث عن الحب في عيون النساء، وعن الخلود في الموسيقى، وعن نفسي في تصفيق الناس... لكنني لم أجد إلا التعب.

ابتسم الكاهن بهدوء :

لأنك كنت تبحث خارج قلبك.

ظلّ فرانز صامتًا.

الكلمات أصابته في مكانٍ هشّ داخله.

قال بعد لحظة :

وكيف يجد الإنسان قلبه أصلًا ؟

أجاب الكاهن وهو ينظر إلى الغروب:

حين يتوقّف عن الهرب.

ارتبك فرانز.

للمرة الأولى، شعر أن أحدًا يراه بوضوحٍ كامل.

قال بصوتٍ متعب :

وأنا... ممَّ كنت أهرب ؟

التفت إليه الكاهن ببطء :

من ذلك الطفل الذي ظنّ يومًا أنه لا يستحق الحب إلا إذا أدهش الجميع.

شعر فرانز كأن الباب القديم في روحه انفتح دفعةً واحدة.

عاد فجأة إلى طفولته ؛ إلى والده الصارم، إلى البيت البارد، إلى ذلك الصبيّ الذي كان يعزف بجنون فقط ليحصل على نظرة رضا واحدة.

همس بصوتٍ مكسور :

كنت أعتقد أن النجاح سيملأ هذا الفراغ.

وهل ملأه ؟

أطرق رأسه.

لا.

ساد الصمت مجددًا، لكنّه هذه المرّة لم يكن مؤلمًا. كان صمتًا دافئًا، كأن روحه بدأت تتنفّس أخيرًا.

+

في تلك الليلة، لم ينم فرانز.

جلس وحده في غرفته الصغيرة بالدير، وأشعل شمعةً قرب السرير.

الضوء المرتعش جعل الجدران تبدو حيّة، كأن الظلال تتحرّك معه.

تأمّل يديه طويلًا. كم عزفتا ؟ كم لمستا ؟ كم صفّق الناس لهاتين اليدين ؟

ومع ذلك، لماذا يشعر بكل هذا الخواء ؟

أغمض عينيه، وبدأ حوارٌ طويل يتشكّل داخله.

" هل أخطأت الطريق ؟ "

" أم أنني كنت أعرف منذ البداية، لكنني خفت الاعتراف ؟ "

" لماذا كنت أحتاج حبّ الجميع ؟ "

ثم جاءت الإجابة من مكانٍ عميق فيه :

" لأنك لم تحب نفسك يومًا ".

ارتجف.

كانت الحقيقة قاسية وبسيطة في الوقت نفسه.

لقد عاش عمره كلّه كمتسوّلٍ عاطفي يرتدي ثياب العباقرة.

كل تصفيقٍ كان محاولةً لسدّ جوعٍ قديم، وكل امرأةٍ كانت ضمادةً مؤقتة لوحدةٍ أعمق من الحب.

فتح النافذة.

الليل كان ساكنًا، والقمر معلّقًا فوق الأشجار كفانوسٍ إلهيّ.

تنفّس ببطء.

وللمرة الأولى منذ سنوات، لم يشعر بحاجةٍ إلى أن يكون أحدًا.

لا موسيقيًّا عظيمًا. لا عاشقًا فاتنًا. لا رجلًا يصفّق له الجميع.

فقط... إنسانًا متعبًا يريد السلام.

+

في الصباح التالي ، وجده الكاهن جالسًا في الحديقة الحجرية الصغيرة.

كان يبدو أكثر هدوءًا.

سأله مبتسمًا :

هل وجدت شيئًا الليلة ؟

فكّر فرانز قليلًا، ثم قال :

ربما بدأت أفهم أنني قضيت حياتي أبحث عن بيت... بينما كنت أحمله داخلي طوال الوقت.

ابتسم الكاهن دون أن يعلّق.

وكان الهواء البارد يحرّك أوراق الأشجار ببطء، فيما الشمس تتسلّل على أطراف الدير مثل وعدٍ جديد.

رفع فرانز وجهه نحو السماء.

وفي داخله، للمرّة الأولى منذ زمنٍ بعيد، لم يكن هناك صخب.

السيمفونية الأخيرة

في أيامه الأخيرة، صار المعلّم يمشي ببطءٍ يشبه اعتذارًا طويلًا للحياة.

كانت عصاه تضرب الأرض برفق، كأنها لا تريد إيقاظ الذكريات النائمة تحت البلاط العتيق. وكلما عبر ممرّ المعهد الموسيقي، التفت إليه الطلبة بصمتٍ مهيب؛ لا لأنهم يرون فيه موسيقارًا عظيمًا فقط، بل لأن ملامحه صارت تحمل شيئًا أعمق من الشهرة... شيئًا يشبه النجاة بعد احتراقٍ طويل.

كان وجهه ناحلًا، تتوزّع عليه تجاعيد دقيقة كأنها سطور نوتة قديمة. وعيناه، رغم العتمة التي سكنت أطرافهما، ظلّتا ممتلئتين بذلك البريق الحزين الذي لا يظهر إلا في عيون الذين خسروا كثيرًا، وفهموا العالم متأخرين.

في إحدى أمسيات الشتاء، جلس أمام تلاميذه داخل القاعة الصغيرة.

المطر بالخارج كان يهطل ببطء، والنوافذ ترتجف تحت الريح. أما هو فظلّ صامتًا لدقائق، يمرّر أصابعه المرتجفة فوق سطح البيانو دون أن يعزف.

قالت إحدى الطالبات بخفوت :

أستاذ... لماذا تبدو الموسيقى حزينة دائمًا حين تعزفها ؟

رفع رأسه إليها. ابتسم تلك الابتسامة الشاحبة التي تشبه آخر الضوء قبل الغروب ، ثم قال :

لأن الفرح الكامل لا يصنع فنًا حقيقيًا.

ساد الصمت.

حتى المطر بدا وكأنه توقف ليستمع.

تنحنح قليلًا، ثم أكمل :

الإنسان لا يتعلّم الموسيقى من الكتب... بل من الأشياء التي كسرت قلبه.

شعر بعضهم أن العبارة قاسية، بينما شعر آخرون أنها حقيقية أكثر مما ينبغي.

أما هو، فكان غارقًا في مكانٍ آخر. في داخله، كانت السنوات تعود ببطء؛ طفولته الفقيرة، وجه أبيه المتعب، أصابع أمّه وهي تخيط الثياب قرب النافذة، وصوت الجوع في الليالي الباردة.

تذكّر يوم مات أبوه.

كان في الثانية عشرة فقط. عاد من المدرسة ليجد البيت مكتظًا بالوجوه الصامتة. يومها لم يبكِ. ظلّ واقفًا قرب الجدار كأنه لا يفهم شيئًا.

لكنه في الليل، حين نام الجميع، جلس أمام البيانو القديم الذي تركه الأب في زاوية الغرفة، وضغط أول مفتاح.

خرج صوتٌ مرتجف... ضعيف... لكنه كان يشبهه تمامًا.

ومنذ تلك اللحظة، أدرك أن الحزن يمكن أن يتحوّل إلى شيء جميل.

ربما لهذا السبب لم يتوقف عن العزف أبدًا.

+

بعد انتهاء الدرس، بقي أحد تلاميذه جالسًا. كان شابًا اسمه يونس، متوتر الروح، كثير الأسئلة، يحمل ذلك القلق الذي يسبق اكتشاف الذات.

اقترب من المعلّم وسأله :

هل ندمت يومًا ؟

نظر إليه العجوز طويلًا.

ثم ضحك ضحكة قصيرة متعبة .

كل إنسان نفرانز يا بني... الفرق فقط في نوع الندم.

جلس يونس قربه . و سأله :

وعلى ماذا ندمت أنت ؟

أطرق المعلّم برأسه، كأن السؤال فتح بابًا صدئًا داخله.

قال بعد صمت :

على امرأة أحببتها أكثر مما ينبغي... وعلى الموسيقى حين أحببتها أكثر منها.

كانت الجملة ثقيلة، لكنها خرجت بهدوءٍ غريب، كأنها اعتراف تأخر سنوات.

سأله يونس :

ولماذا تركتها ؟

أجاب بصوتٍ خافت :

لم أتركها... أنا فقط كنت دائم الغياب، حتى وأنا بجانبها.

ثم أضاف :

بعض الرجال يظنون أنهم يسعون خلف المجد، بينما هم في الحقيقة يهربون من أنفسهم.

ارتجفت عينا يونس.

أما المعلّم، فكان يرى وجهها الآن بوضوحٍ مؤلم.

ليلى . المرأة الوحيدة التي جعلته يشعر أن الحياة قد تكون أكثر من مجرد نغمات ووحدة . كانت تضحك كثيرًا، وتؤمن به أكثر مما يؤمن بنفسه. وكانت تقول له دائمًا :

أنت لا تعيش هنا... أنت تعيش داخل الموسيقى.

ولم يكن يفهم ما تعنيه. إلا بعد رحيلها.

رحلت بهدوء، دون مشهدٍ درامي، دون صراخ، فقط تركت رسالة قصيرة فوق البيانو :

" لا أستطيع منافسة شيء لا أراه ".

ظلّ سنوات يقرأ الرسالة ذاتها، دون أن يفهم كيف يمكن للإنسان أن يخسر أهم الأشياء بينما يظن أنه يبني مستقبله.

+

في تلك الليلة، عاد إلى منزله متعبًا.

البيت كان ساكنًا على نحوٍ موحش. الكتب مكدّسة، والأوراق مبعثرة، ورائحة الخشب القديم تملأ الغرف.

جلس قرب النافذة.

المدينة بالخارج بدت بعيدة، كأنها عالم لا يخصّه.

وأخيرًا... بدأ يسمع ذلك الصوت الداخلي الذي ظلّ يهرب منه عمرًا كاملًا.

" ماذا ربحت حقًّا ؟ "

سؤال بسيط، لكنه هزّ روحه بعنف.

لقد نال الشهرة، وصفّق له الآلاف، وعزفت مقطوعاته في مسارح كبرى... لكن لماذا يشعر الآن بكل هذا الفراغ ؟

أغمض عينيه.

وفجأة، أدرك شيئًا مرعبًا :

أن الإنسان قد يقضي حياته كلها يركض نحو حلمٍ ما، ثم يصل إليه متأخرًا ليكتشف أنه كان يريد الحب أكثر.

شعر بغصّة حارقة. لأول مرة منذ سنوات، بكى. ليس على ليلى فقط... بل على نفسه القديمة، على الطفل الذي ظن أن المجد سيُنقذه من الحزن، وعلى الرجل الذي أخفى هشاشته خلف الموسيقى حتى نسي كيف يتكلم كبشرٍ عادي.

ظلّ يبكي بصمت، بينما المطر يزداد في الخارج.

+

في الأيام التالية، صار أكثر هدوءًا.

لم يعد يوبّخ الطلبة، ولم يعد يهتم بالكمال الموسيقي كما كان سابقًا.

كان يكرر لهم دائمًا :

الخطأ الصادق أجمل من العزف البارد المتقن.

ثم يضيف :

الناس لا يتذكرون التقنية... الناس يتذكرون الشعور.

وذات يوم، سأله يونس :

وهل يكفي الشعور لصنع حياة جيدة ؟

ابتسم العجوز .

لا شيء يكفي لصنع حياة جيدة.

ثم أكمل وهو ينظر إلى البعيد :

نحن فقط نحاول أن نعيش بأقل قدر ممكن من الندم.

+

قبل موته بأيام قليلة، طلب من تلاميذه أن يجتمعوا في القاعة الكبرى. جاؤوا جميعًا.

كان جالسًا قرب البيانو الأسود، مرتديًا معطفه الرمادي القديم. بدا نحيلًا أكثر من المعتاد، لكن وجهه كان هادئًا على نحوٍ مدهش.

قال لهم :

حين كنت شابًا، ظننت أن الفن انتصار... ثم اكتشفت أنه عزاء.

ساد الصمت.

وأكمل :

لا تبحثوا في الموسيقى عن المجد... ابحثوا عن أنفسكم.

ثم رفع يده المرتجفة نحو مفاتيح البيانو.

وعزف. كانت المقطوعة بسيطة بصورة مؤلمة. لا استعراض فيها، ولا تعقيد تقني، فقط لحن دافئ يشبه إنسانًا عاد أخيرًا إلى بيته بعد تيهٍ طويل.

وخلال العزف، شعر الجميع أن الرجل لا يعزف لهم... بل يعزف لحياته كلها. لأبيه. لليلى .لطفولته الفقيرة. لوحدته الطويلة. ولكل النسخ القديمة منه التي ماتت بصمت عبر السنين.

حتى يونس، الذي كان يحاول دائمًا فهمه، شعر فجأة أن المعلّم لم يكن يعلّمهم الموسيقى أبدًا...

كان يعلّمهم كيف ينجون من الحياة.

انتهت المقطوعة.

رفع العجوز يديه ببطء.

ثم قال بصوتٍ متعب :

لا تعزفوا الموسيقى بأيديكم... اعزفوها بما خسرتموه.

ابتسم بعدها تلك الابتسامة الحزينة التي تشبه الغروب حين ينسحب ببطء من فوق البحر.

وكانت تلك آخر مرة يعزف فيها.

+

في الليلة الأخيرة، تمدّد على سريره قرب النافذة المفتوحة. الهواء البارد دخل بهدوء، وستارة الغرفة تحرّكت كأنها نفسٌ خفيف.

لم يشعر بالخوف. على العكس... كان ثمة سلام غريب يملأ قلبه.

أغمض عينيه، وبدأ يسمع نغمًا بعيدًا. هادئًا... رخيمًا... يشبه أول لحن عزفه طفلًا بعد موت أبيه. حينها فقط فهم كل شيء.

فهم أن الإنسان ليس سوى عبورٍ قصير بين عتمتين. وأن الحب لا ينقذنا من الفناء، لكنه يجعل هذا العبور أقل وحشة. وأن الشغف، مهما أحرق أرواحنا، يمنح حياتنا معنًى يستحق الألم.

ابتسم بخفة.

ثم خطر له سؤال أخير :

" لو عشتُ حياتي من جـديد... هل كنت سأختار الطريق ذاته ؟ "

فكّر طويلًا. ثم همس لنفسه :

نعم... لكنني كنت سأحب أكثر.

بعدها، تنفّس بعمق، كأن روحه تستعد للرحيل مثل طائرٍ تعب أخيرًا من الطيران.

وفي الخارج، كانت المدينة نائمة، والليل يمضي بهدوءٍ أبدي.

أما في الداخل... فقد ظلّت الموسيقى وحدها مستيقظة.